

دراسة لمعات الحرب في شعر شوقي

*Study of reflections of wars in the poetry of Ahmad Shoqi*د. شمس الحسين ظهير^أ هدايت الحق^ب**Abstract**

Probably, poetry of every nation is counted as an echo of the cry of their daily happenings; whether it would be pleasures or sorrows. Hence the poetry of Ahmad shoqi is accepted as a representative of his nation and where ever he felt or saw anything good or wrong he gave it to the rhythmical shape.

This article explains the very impression which was indorsed to his poetry and particularly describes the wording structure of his poetical couplets (pairs) in the bravery art, fiction, political and dramatic poetry.

Adding more, it discusses the reflection of wars on the above mentioned arts in a scholarly way.

Key words: Daily happenings, rhythmical shape, wording structure, bravery art, Shoqi

قبل الكلام

هذا واضح تمام الوضوح أن معظم شعر العرب يشتمل على مفاخرهم القبلية أو المآثر الذاتية الشخصية أو المنافعة الدينية. وهو ليس بادعاء فحسب بل وتؤيده المحفوظات من شعرهم أكان جاهلياً أم إسلامياً أم أموياً وعباسياً وسنوضحه فيما بعد. وقديماً عُد الشعر عاملاً صارفاً عن القبيلة والذات، ومنافحاً عن عزّ الشرف القبلي، ولذا عندما وُلد لدى قبيلة من قبائلهم شاعر فجعلوا يحتفلون به لكونه ممن يدافع عنهم لسانياً لأن الحرب والجدل عند النفوس البشرية تكون باللسان كما لا تزال بالسيف والرمح¹. ولذا امتكنت القصائد الجاهلية من منزل رفيع في الجدل والمنازعة والمدافعة، ومعظم تلك القصائد تركز على تلك المقاصد من بين المقاصد الشعرية الموضوعية الأخرى.²

^أ الأستاذ المساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة عبد الولي خان، مردان

^ب الباحث بمرحلة ماجستير الفلسفة، جامعة بشاور، بشاور

إضافة بما قلنا لقد عاش شوقي في عصر كان ممتلاً بالحروب بين المسلمين والمختلين عليهم وبين المشاجرات في ما بين المسلمين أنفسهم. وشاكياً عن الخلاف بينهم قد اضطرَّ شوقي أن يصنع الشعر وينصح لهم، وعناية بهؤلاء الأعراس لقد قرع شوقي أسمع العالم بأمتع كلامه. وخلا الحروب المتشابكة في عصر قد قام بتناول ما علم به من التاريخ الدامية القديمة أكان في مصر أم خارجها حتى الوقعات التي صدرت في حياته بين أفراد مجتمعات حوله. ومجئنا هذا يهتم بما نالت الحروب لشعره بكون الأثر في عديد من فنون الشعر؛ الرواية والمسرحية والقصة وفن الحماسة بين الفنون الأخرى. فنحن نذكر الفنون حسب ما دبت إليه شم الأثر ترقيماً باسم الفن ثم دلالة مناً بكيفية الأثر الذي تدرج إليه.

أولاً: لمعات الحرب في روايات شوقي

لقد ارتكمت معلومات مجتمعات العالم لدى شوقي في ذهنه حتى صيرته يعبر عنها وينقلها إلى ورقات الكتب. وكما قلنا إنه اجتمعت التواريخ القديمة والحديثة لدى أمير البيان؛ شوقي، ونضجت ثمرها دفعاً إلى ترتيب كتابية مناسبة بحيث يصلح للقراءة والأخذ للفكرة السليمة والتنسيق لمعانها المطلوب. إثباتاً لما سبق، قد شرع شوقي يكتب ويصنّف روايات شعرية، وهي تدلّ على عبقريته الفذة. وأحاسيس الأمير نفسها تأثرت بسرد الحروب إتما مباشراً أو غير مباشرٍ.

رواية عنتره

تدور أحداث الرواية حول بطلين، وهما: عنتره وإمام الشعراء المحدثين أحمد شوقي نفسه. ومن المعجب أنها تحفة من تحف الأدب العربي التي تمتزج من الشعر الغنائي والشعر الروائي. وقد قام شوقي بجمع بين الأصالة والمعاصرة فقدم العربية الجاهلية القديمة على الروائية الجديدة التي تقنيات المسرح الأوروبي، وهذه الرواية تحمل في جوفها بين المساسة والحب والغناء والتاريخ. وهذه مكونات تتزين بها إنتاج رواية ما.

ثم الأمير شوقي يورط بنفسه في منافسة مع عنتره الشخصية التاريخية المعروفة بين الشعراء الجاهليين الذين عاشوا قبل الإسلام. وكانت له صيت وصدى مسموع في الفروسية وصناعة الشعر الرصين. وكل تلك الأمور، زادتها حسناً وبهاءً اهتمام الأمير بكون نطقها باللهجة الفصحى الخالصة.³

رواية الست هدى

تدور الحدث الكبير في هذه الرواية الملهامية حول بطلة تدعى السيدة هدى التي قد أنعم الله عليها بوفرة المال وغزارة الثراء؛ كانت تملك ثلاثين فداناً من الأرض ما شوّقت الناس في التراكم لديها لينالوا منها زواجاً حصولاً على بعض المال. وكانت تتزوج بواحد الراغبين فيها إذا ما يملك عندها إلا ويلقى ربّه وهي بقيد الحياة. ثم قدر الله لأحد أن تزوج منها وماتت هي دونة فظنّ أنه سيصيب الثراء المطبقة فلم يلبث أن اكتشف له أنّها أوصت بجميع المال لجهات البرّ وبعض صديقاتها فاغتم الزوج بعمله. قد اجتهد الأمير بتقديم هذه الرواية الملهامية إبراز العيب الخلفي القبيح والانحراف الاجتماعي المتفشى في المجتمع المصري آنذاك.⁴

رواية قمبيز

أحداث هذه الرواية التاريخية دارت حول قمبيز بن قورش الذي كان يسوس الفرس ويعرف بنفس الاسم. تولّى الحكم عقب أن وافت المنية والده في إحدى الحملات وقد أراد استقامة سلطته على الفرس فنأدى بنفسه فرعوناً ما تدل على عقيدتهم بآمون الذي كانوا يظنون ألوهيته. وأنبأه كهان آمون بانخزاه في المستقبل فغضب له فأرسل حملة يقودها بنفسه إلى واحة سيوة لهدم معبد آمون حيث هبت عليها عواصف الصحراء وهي في طريقها فدفنتها بالرمل ولم ينج منهم أحد.⁵ وكان هيرودوت المؤرخ يقدر عدد جنود الجيش الذي قام بهذه الحملة بمائتين وخمسين ألف جندي، وقد نقد العقاد⁶ في هذه الرواية من أوجه كثيرة منها: أن الشعر تعبير تلقائي لا يفتعل، أو كما كانوا يقولون قديماً مطبوع لا مصنوع، وقد ارتأى العقاد أن نصيب شوقي ضئيل بالقياس على هذه الجوانب.⁷

رواية كليو باترا

تتمّ المسرحية بتاريخ مصر القديم بما قبل المسيح وتدور أحداثها حول كليو باترا بصيرورتها بطلة المسرحية. وقد كانت لها علاقات بكل من ماركس أنطونيوس ويوليوس قيصر. ثم سرد الرواية يحدث في زمن عاشت فيها كليو باترا يعني حوالي عام 30 ق.م الذي شهد موقعة أكتيوم. وهي تلك الموقعة التي اشتبك فيها أنطونيوس و أوكتافيوس قرب مدينة الإسكندرية، ووقفت كليوباترا بجانب أنطونيوس. لما اندلعت نار الحرب،

انسحبت في إبان القتال وضعف جانبه، وانتصر عليه أوكتافيوس، فأرسلت إلى أنطونيوس من يُعلمه بموتها فأغمد سيفه في قلبه، ثم عن قليل علم أنها خبر كذب فأمر أن ينقل إليها لي موت أمامها لحبه لها، فخشيت كليوباترا على أسر أوكتافيوس فانتحرت، وتركت من أنطونيوس بنتين، و ولدأ من يوليوس قيصر. إنه يظهر أن شوقي لعله أراد بهذه المسرحية انتصار كليوباترا، ومثلها في صورة الملكة الوطنية الحريضة على مصلحة شعبها ما لم يتركها المؤرخون الغربيون حيث اتهموها بالغباوة وقالوا عنها أنها كانت لاهية غانية وكانت لا تعني بمصلحة بلدها ومن والتهم. وأما موقف شاعرنا فيختلف عنهم كل الاختلاف⁸.
 قد رأينا شوقياً واضع الأسس حين يكتب ويذكر المحاربات الدولية القديمة والحديثة كليهما. ويتجدد في تناوله بحيث ألقته في قواعد الرواية الحديثة المطروحة على تقنيات مأخوذة أكثرها عن الغرب.

ثانياً: لمعات الحرب في شعر الحماسة

من أبلغ المقاصد التي أنشد فيها الشعر قديماً كانت ثلاثة؛ أولها المرأة والخمر وملذت العيش. وثانيها الفخر بكثرة المال والسخاء به. وأما القسم الثالث فكان حماسةً. ثالثها: الحماسة. فالحماسة صدى لما تضح من ضروب السيوف أو سلّ الأسنة أو وقع السهام، ولذا يعدّ من أسنى الأغراض الشعرية العربية إذ هي تحافظ على مفاخر العرب ووقائعهم الحربية أو مآثرهم المناضلية السامية. وهو الأمر دفع الجاهليين إلى العناية البالغة بها حتى بمرور عصرنا الحاضر حتى المعلقات السبع المعودة من أمتع الشعر العربي.
 وعصر شوقي نراه مملوءاً بأشعة التشاجرات الداخلية المصرية والخارجية العالمية الإسلامية. ونفس الأشعة أوقدت النيران في داخل النفس الشوقية بما جعلته خصّ لها قطعةً بارزة لفن الحماسة بعدد أنواعه؛ إما بشكل التابن يموت مصطفى كامل⁹ وإما بإعداد عمر المختار المجاهد النبيل¹⁰. وعندما ينشد شوقي بهذه فلا يغفل عن تشابك المشاجرة الجارية آنذاك بين الأتراك والأوروبيين فكان لا بد أن تصير أيامه أيام بروق السنان المنشئة أصواتاً لصرائر شعره.

هذا كان في مخ القصيدة، بعدها تحزّب أمير القوافي لأمة الإسلام في المناضلات بين المسلمين وأقوام آخرين حتى كشف عن مكائدهم الخبيثة المجتنة، وقدمها في صورة رائعة مرسومة بألوان من الفنون المأتية تحليداً لوقائع الحزب الإسلامي وتحيةً لانتصار قومه على

آخرين ومواساةً بعدوان العدو على سادات حزبه. وفي التالي أذكر بعض ما قاله من فن الحماسة، مثلاً هو يكشف المغطيات عن وجوه أهل الغرب القائلة بقانون الأمن والسلامة فهو يتناول عن عقوباتهم التي أجروه على عمر المختار:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم، نصبوا مناراً من دم توحى إلى جبل الغد البغضاء

هو يتعجب من فعلهم الشنيع بحيث يقول: كيف جعلوا موضع الوُدّ والنور مناراً للدم السائلة، وكيف جعلوا مكان الاستئناس موضع تنفير وإزعاج، وهم لا يعقلون بملا سيخلفه هذا الإعدام فيما بعد. وهذا سيكون يدعو إلى الحرية والتحرير الرقي في المسلمين كما قال في بيت الشعر القادم:

جرحٌ يصيح على المدى، وضحيةٌ تتلمس الحرية الحمراء

في البيت إشارة إلى أن الحرية مكتسبة بالدم، ومكتسبة بما ولا تحصل عليها إلا وأن تنتحر ثغرك بسفك الدم. وحسبك بالعمل ما أذاه عمر المختار في سبيل الله من المقاتلة أعداء الله والسجن في سبيله والإعدام له. وكيف لا ذاك لأن الأبطال يولدون لمثل تلك الأيام الكريهة. وهو ينشد:

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تغب الماء

ومن العجيب فوق الأعجب أن البطولة التي مثلها هو لا يُنسى وقليل من أصحاب الإمارة من يتأهل لها. وواحد منهم عمر في حياته وبعد مماته، إذا ترخبه أهل إفريقيا حياً وعالجه الرجال والنساء بمعاملة حسنة مبيتاً. وهو يقول:

إفريقياً مهد الأسود ولحدها ضجت عليك أراجلا ونساء

ثم يعزّي أهله ويسلّهم بما أعزهم الله أن الشهداء يحيون في قبورهم، لا نشعر بحياتهم فيها وهم يُرزقون من عند الله، فيقول:

وقبور موتى من شباب أُمّيّة وكهولهم لم يرحوا أحياء

ثم أتى بما نحن فيه من قول بديع في عمل الحرب بأجسام أنام بين جبانٍ و شجعانٍ، بعد القول هذا يطيل القول في عمل الحرب أنها تأكل أرواح الجبانٍ والشجاع معاً، ويقول:

لم تُبق منه رحي الوقائع أعظماً ولم يُبق الرماح دماءً

رغم معرفة كل تلك الحقائق هو لا يتخلف عن قضاء وظيفته ولا يُريعه متاعب الموت شهيداً. وفي الفضائل تلك هو ينشد عنه:

لبيّ قضاء الأرض أمس بمهجة لم تحش إلا للسماء قضاء

وهو القائل عن اعتناقه الموت وحبّه إياه:

وفاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جرّ إلى القضاة رداء

شيخ تمالك سنّه لم ينفجر كالطفل من خوف العقاب بكاء

الأسد ترأّر في الحديد ولن ترى في السجن ضرغاً ما بكى الاستخاء¹¹

في الأبيات الثلاثة يُبرّز شوقي حماسة عمر المختار وينفي منه ما لا يليق به كبكاء الطفل من خوف التعذيب. ويشبّهه باللبث الزائر في السلاسل ويُعلّله أن الضرغام لا يبالي بالسجون وصعوباتها كما أعاد القول مراراً.

ومن الأمانة أن نلقي الضوء بمقاله قاله في غير عمر المذكور آنفاً ليتوضح لنا هل كان شوقي أشدّ بمن سعى دفاعاً عن الإسلام والمسلمين كلهم بقوله العذب على السّوية أم فترق بين من أحبه أرباب سياسيته ومن سخطوا عليه أم لا؟ فهو القائل في حماسة مصطفى كامل باشا بعد ما وافته المنية نعيّاً له بحال الكلام المختفئ الضمئل كقوله:

المشرقان عليك ينتحيان قاصيهما في مأمّ والداني

هل قام قبلك في المدائن فاتح غازٍ بغير مهندٍ وسان؟

بعد هذا الإقبال الرفيع على مآثره يأتي بما أحسنّ من تأبين الناس على المصطفى

كامل، فيقول:

شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكثك بالدمع الهتون غواني

والخلق حولك خاشعون كعهدهم إذ ينصتون لخطبة وبيان

يتسائلون: بأي قلب تُرتقى بعدُ المنابر، أم بأي لسان؟

لما قارناً خصال كامل باشا بخصال المختار من خلال رثائهما فوجدنا رثاء مصطفى كامل أقلّ تعبيراً لدى أصحاب الصناعة وأخفى ضجيجاً في قلوب الشعب المصري عن رثاء عمر المختار.

ثم بعد ذلك يذكر الشاعر مكانته الرفيعة عند الناس، وحبّهم له، ولوعهم به،

فقال:

لو أن أوطاناً تُصوّر هيكلًا دفنوك بين جوانح الأوطان

أو كان يحمل في الجوارح ميّت حملوك في الأسماع والأجفان

أو صبيغ من غرّ الفضائل والاعلا كفن لبست أحاسن الأكفان¹²
 قد أتى في الأبيات تلك بصورة كامل الصحيحة صورة تُحيل إليه عند الشعب
 المصري جراً لما عاجله من المتاعب في سبيل الحرية الشعبية. وكيف لا هي إذ الأبطال
 مثله لا ينسون ولا يكفنون في التراب إلا ويعيشون في أفئدتهم بعد مرور زمن طويل.
 حقاً أن القصيدتين هما صدئٌ للحروب الجارية لنيل التحرر الفكري والجسدي
 في مصر وجواره. وهي القصائد التي لم تخل منها شعره الحماسي البحت وتأثرت به إلى
 حدٍّ أبعد. فضلاً عن ذلك، لو نظرنا نظراً غائراً في القصيدتين لوجدنا أثر حرب مصطفى
 كامل قليلاً هاتفاً عن حرب عمر المختار مع جزالة مفردات القصيدة، صدق الأحران،
 قوية الرنين، بعيدة السبك والنظم. ولها رنانة تفرع القلوب وتجذب الأسماع وتنشط
 الأذهان. وأما آثار الحروب في الرثاء المنشودة في مصطفى فلا هي تحمل تلك الصفات
 ولا هي تدعو إلى زعامته ولو كان هو فائزاً على أولى الفضائل الحسان. ولذا توجه إليه
 الدكتور الفاضل شوقي ضيف بأقوال تنال من شأن أحمد شوقي فهو ينتقده بقول أن:
 "القصيدة رائعة من حيث الصور والصياغة، وما يتخللها من عظات وحكمٍ يُطلّ فيها شوقي
 من برجه العاجي أو الذهبي على الدنيا من حوله، وكأن شوقي لا يبكي مصطفى كامل روح
 الوطن وشعلته الملتهبة، وإنما يبكي مصطفى كامل الشخص وخلقه، ودعوته إلى العلم
 الشريف"¹³.

مضيفاً إلى ما قلنا لا يغفل عن أهمية السيف والسنان في غلبة قوم لأن الرغبة
 في السلاح كانت تدلّ على خبرتهم في أشغالهم الحربية وهي لا تخلو عن صلاحيتهم في
 التمكن عن أناس مغلوبين مقهورين. ونفس الكيفية نجدها عند شوقي عندما يخوض في
 الكلام عن السلاح المصلحة لمجتمع الناس. وعندما اشتبكت أصحاب الخلافة العثمانية
 مع اليونان فقال واصفاً السيف بمقاله الآتي:

وما السيف إلا آية الملك في الوري	ولا الأمر إلا للذي يتغلب
فأذب به القوم الطغاة، فإنه	لنعم المرّي للطغاة المؤذب
وداو به الدولات من كلّ دائها	فنعم الحسام الطّبّ والمتطبّب

لقد أحسن القول في وصف السيف ومحاسنه المشهورة في من يعقل بالكلمات
 المتقدمة كما أنه كشف عن خفايا السيف، ثم جمع بوصف السيف وما يحتمله من أداة
 الإصلاح، وكما أنها تُشجع الولاة أن يتصفوا بمحاسن الحسام المسلول للدفاع عن دول

المسلمين كلهم، وكما أعلن في البيت الثاني أن الطغاة لا تُداوى إلا بالسيف، وحبذا المرابي هو السيف. ثم قال:

تنام خطوبُ الملكِ إن بات ساهراً
وإن هو نام استبقظت تنأب¹⁴

في هذا البيت أيضاً حسن من محاسن السيف؛ أن السيف يحفظ الملوك والأمم، إن يبث ساهراً فتتم الخطوب دونها، وإن نام الحسام فالأعداء تأمروا ضد النيام. ونفس المعنى نجد في قول القائل:

تروم العرّ ثم تنام ليلاً
يغوص البحر من طلب الآلي¹⁵

في ضوء ما تقدم، نستحق القول بكون شعره متأثراً بالحروب بالتاريخ المكتوب بالأحجار، ونستطيع الحكم على حماسته بالخلاف في ما بين الأبيات، تختلف في موضع دون الآخر حسب المقننات وحسب الأحوال اللاحقة به. ففي مكان ترتفع الحماسة منه لفظاً ومعنى، وفي آخر تغلو صياغةً دون تعبير صادق. ولعلّ شوقياً قيّد نفسه في القصر، وابتغى مرضاة أهل البلاط وخشي سخطهم، وفي الوقت نفسه يريد أن يرضي الجمهور ويرضي الشعب الذي يحاوره ويداوره، ولا يتمكن له ذلك معاً.

ثالثاً: لمعات الحرب في لغة الشعر وصياغته

الشعر تعبير بكلمات منسقة عن انفعالات شاعر وأحاسيسه بالكون ومظاهرها داخل الحياة. فإن كان تحشد لد الشاعر كلمات رائعة يقتضيها فكره، وهو يستطيع تعبيراً عن تلك الأحاسيس بتلك الكلمات وينجح في ما يريد، وإن لم يستطع التعبير اللائق فلا ينجح. وقد يتأثر الأديب أو الشاعر بثقافة غير ثقافته ومجتمع غير مجتمعه فتجري على لسانه كلمات لتلك الثقافات واللغات، فيزداد في أدبه ولغته مادةً وغزارةً كما هو حال عند شاعرنا شوقي، فتتقف بثقافة حلّ في أهلها، مثل: الفرنسيين والإنجليز كما يتراءى في شعره المسرحي والقصصي.

ووسعة تلقنتها اللغة العربية في داخل شعر شوقي، إنما كان لأجل تحليقه في نواحي العالم بعيده وقرابه، وما زال هذا الجولان عنصراً هاماً في تجديد شعره. فشوقي ما يفتأ يصنع شعره من ألفاظ سهلة منسقة حين ما يتناول الغزل أو التزهّد في الدنيا، و ينتخب صعبةً ضابحةً عندما يُجال له أنه يتجول في ميدان الحماسة أو الفخر على تاريخه

أو على أجداده. فتطبيقاً لما قلناه نأتي في ما يلي بشواهد من خلال شعره. هو يقول في مديح النبي صلى الله عليه وسلم:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والمأمل الملائك حوله
للدين والدنيا به بشرء

اجتهد شوقي أقصى جهده أن يأتي بحروف الحلق، لأن حروف الحلق سهلة يسيرة في الأداء. وهو من مقتضى المدح لأنه يقتضي عدوبة وسداجة. وهذا الأمر لا يتم إلا باختيار حروف الحلق.

وفي موضع يُنشد عن كبار الحوادث في النيل، فيقول:

أرى العُجم من بني الظلّ والماء
وتثير الخيام آساد هيجا
ما أنافت على السواعد
حتى الأرض طرّاً في أسرها والفضاء¹⁶

ومن يتفكّر في البيان في ما تقدّم فيبدو له كون الأبيات موضع الفخر والتعجب بفضائل البيداء وأهلها. وهم أصحاب الخشونة. وفي الأبيات أوتيت بحروف الشدة مثل الدال، والجيم والضاد.

وفي صناعة الشعر يوجد لديه شيء آخر هو استعمال الكلمات العجمية ومواقعها، وهذا يدل على استقصائه في اللغات الأخرى وامتزاجه في النسب بالأقوام المختلفة في الخلفية. فمثلاً هو ينشد فيستخدم كلمة إنجليزية، مثلاً هو يقول في أثناء المديح لعمر المختار:

بطل البداوة لم يكن يغزو على
"تنك"، ولم يك يركب الأجواء

ف"تنك" يقال للدبابة. ومعنى الشعر: أن القائد عمر المختار لم يستمدد من الدبابة ولم يركب الطيارات مثل الإنجليز، لأنه كان بطلاً يسكن في البيداء ومثله لا يعتقدون بتلك الوسائل.

والشاعر تمكن من الفرنسية كتمكّنه من الإنجليزية، وترجم من اللغة الأولى في

الرجل السعيد أشعاراً رائعة تزيد على أربعة عشر بيتاً. فهو يقول:

عفيف الجهر والهمس
قضى الواجب بالأمس
ولم يعرض لذي حقّ
بنقصان ولا بخس
وعند الناس مجهول
وفي ألسنتهم منسي¹⁷

وكذا هو يأتي بأسماء الأعلام عندما يكون على وشك الإشادة والصناعة، كقوله في مقابح نابليون المحتلّ على مصر:

قاهر العصر والممالك، نابليون وُلّت قواده الكبراء
جاء طيشنا، وراح طيشنا، ومن قبلُ أطاشت أناسها العليا
سكتتْ عنه يوم عَبرها الأهرام، لكن سكوّتها الاستهزاء
فهي توحى إليه: أن تلك "واتر" لو¹⁸ فأين الجيوش وأين اللواء؟¹⁹

هذا ما يفعه شوقي بشكيل كلامه المنسوج. ومن ناحية أخرى وافق بعضاً من الشعراء القدماء وعارضهم بالقوافي التي سجّعوا بها أبيات قصيدهم. فهذا بحتري يقف على إيوان كسرى ويتذكر أيامها الذهبية التي اندثرت فهو يبكي على تلك الدول، فهو يقول باكياً:

صنت نفس عما يُدّس نفسي وترفعت عن جداكل جيس²⁰

لكن ما بقي إيوان كسرى وتخلّدت قصيدته السينية الشهيرة في عالم الأدب.

ومن هنا قام شوقي بمعارضة تلك السينية، وقال بدأً بالبيت التالي:

اختلاف النهار والليل يُنسي اذكرا لي الصبّا، وأيام أنسي

فبكي بكاءً فاجعاً حتى قال:

وعظ البحتريّ إيوان كسرى وشفنتي القصور من عبد شمس²¹

هذا هو صناعة الشعر عند شوقي قد اختلف باختلاف الحال والمقتضى، وتقدّم إلى الأمام مستهدف التكميل في المديح والحماسة.

وليس حاله المذكور جمع ما فعله بشعره في هذا الصدد بل أوقع أصحاب الصناعة في عديد من فنون الشعر وجدّد فيها فأصاب. هو يعمل نفس العمل في فن الرثاء حين يرثي محمد تيمور²²:

ضربوا القباب على البياب وثوؤا إلى يوم الحساب

همدوا، وكل محرّك يوماً يسكن في التراب

في العالم الفاني مصير العالمين إلى الذهاب²³

بعد أن نتفكر فيما قاله لا نلبث إلا ونحسّ بوجود شديد يجعلنا نسكب الدموع

حُزناً على المرثي، لأن الشاعر قد اختار الكلمات التي لا تذر الرجل ضاحكاً.

وموجز القول أن أشعر الشعراء المعاصرين قد اقتنى الكلمات التي تناسب الأحوال والمقتضى لفن من فنون الشعر يخوض فيه، وهو الأمر يذهب بالمرء إلى سلم المعالي، كما فعل بشوقي في العصر الحديث وأشباعه في العصور الغابرة.

رابعاً: لمعات الحرب في شعره السياسي

لا بد لشاعر مثل أحمد شوقي من تعرض للأمرء الذين يسوسون مناطق العالم. وكلما كان لشاعرنا علاقات قوية بالبلاط منذ أن نشأ وترعرع في داخل البلاط الخديوي، وتعلم على مَنح الحكومة، وزار العالم على نفقات الحكومة الخديوية، فتمكّن من التعرف بسلوك الحكام، وتعرّف خلال دراساته على أحوال البلاد من صعود وهبوط وارتفاع وانخفاض، وهي الأحوال التي صارت إلى لسان قلمه الشعري.

ومسلك الشعر لدى شوقي ينقسم إلى قسمين؛ داخل القصر إلى سنة 1914م وبعد المنفى في الأندلس وبعد العودة إلى مصر حتى الوفاة 1932م. وفي كلا النوعين يشيد بسياسة الملوك لو يتلون نظام حياتهم كما يهجو لمن يُسيئه مداراتهم بسكان الملوك. وفي المدح والهجاء كليهما تعرّض لنواحي العالم العديدة من بين القديمة والمعاصرة. ثم أفرد في شعره للقديم بكتاب مستقلاً، وهو "دول العرب وعظماء الإسلام"؛ فصلّاً بذكر نظام نقد في الإسلام على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم على عهد الصحابة الأخيار الأربعة، وهم الخلفاء الراشدون - رضى الله عنهم - ثم الأمويين فالعباسيين فالفاطميين بالغرب، ثم خصّص للنوع سهماً كبيراً من المجلد الرابع لشوقياته.

وفي التالي تذكر نماذج من شعره السياسي بحيث كيف صنعها وأين جعلها وفي من قالها؟ هذا ملك ألمانيا يخطب سنة 1906هـ فينقص من شأن المصريين فدعت إلى وقعة عظيمة وكادت أن تقع هناك أزمة تنتهي إلى حرب جارفة. فقام شاعرنا ينتقده بقوله:

يا ربّ، ما حكمك، ماذا ترى في ذلك الخلم العريض الطويل؟

قد قام غليومٌ خطيباً، فما أعطاك من ملكك إلا القليل

شيد في جنبك ملكاً له ملكك إن فيس إليه الضئيل

ثم يذكره مفسده التي أدت إلى إفساد وانتشار في العالم ودعت إلى إرهاب في

الأقطار، فهو يقول:

قد ورث العالم حياً، فما غادر من فجٍّ ولا من سبيل

فالنصف للجرمان في زعمه والنصف للرومان فيما يقول
وهذه حقيقة ثابتة بغير أي مناص وبدون أي مفرّ منها أن الحرب العالمية الكبرى قد
تسببت لتقسيم أقطار المناطق الإسلامية ولو كانت بين الأوروبيين. فيا أسفى على غباوة
قواد المسلمين الذين رأوا في منافعهم الشخصية دون الاجتماعية في تلك الأحيان.
تنبيهاً بما قلنا أن الأبيات قد قيلت ولما تنشب الحرب. بعد المرور قليلاً بما قالها
يعود على الأسف على خطبة غليوم فيغضب وينتصر للمسلمين فيتحزب تحزباً شديداً
وينشد:

لا نحن جرمان لنا حصة ولا برومان فنعطى فتيل
ثم يشكو حُزنه إلى الله بنادر قوله:
يا ربّ، لا تنسَ رعاياك في يومِ رعاياك الفريق الذليل²⁴

أقولنا السالفة تنير ما نحن على وشك بيانه من أثر الحروب وضجيجه في شعره
بحيث لم يصبر حتى انفعال بتلك المشاجرات الداخلية والخارجية مشيحاً بما دلّت عليه
أشعاره من مؤامرات أهل الكفر ضد الإسلام وتبّه على مكائدهم خلاف ذوي
الإصلاح.

إضافة بما قلنا واعترافاً بما انتقص من تقدم المسلمين في مختلف الميادين العصرية والقديمة
ما تغفّل أحمد شوقي عن ضبط التوعيدات المصيطرة في شعره فجعل أذنيه واعيتين لما
حدث في ما حوله. ونستشهد لما ادّعناه بوقعة حدثت هي أنه حيّ غليوم الثاني لصلاح
الدين في قبره فلم يلبث شوقي أن أجابه هكذا:

عظيم الناس من يبكي العظاما ويندبهم ولو كانوا عظاما
بعد أن مضى بيتان يقول:

فهل من مبلغِ غليومٍ عني مقالاً مُرضياً ذاك المقاما ؟
رعاك الله من ملكٍ هُمام تعهد في الثرى ملكاً هُماما

ثم يخاطب غليومَ سائلاً عنه عن مكانة صلاح الدين، فقال:

أتدري أي سلطانٍ تحيّي وأي مملّكٍ تُهدي السلاما ؟
فلما قلت ما قد قلت عنه وأسمعت الممالك والأناما
تساءلت البريةُ وهي كلمى أحباً كان ذاك أم انتقاما ؟
فلو كان الدوامُ نصيب مملّكٍ لنال بحدّ صارمه الدواما²⁵

قد ذهب بنا كلامه هذا إلى أن له براعةً تامّةً في أمور السياسة القديمة والمعاصرة، وكان يُولع بما مع جمعه لاستعداده الكامل لانتقاد من خرّمش على أعراض زعماء المسلمين وقوادهم، ومع تحزّب جامع لتاريخ المجد والافتخار بما ملكتهم أيدي الزعماء وبما لا يحتمله من الموالاة مع أعداء الدين الخفيف وحرفاء سادة الأمة.

خامساً: لمعات الحرب في تشكيل شعره

إذا ما يقوم شاعرنا على صناعة كلامه الشعري فلا يشعره بتناحيه المتفشية بل يعنون بعض أشعاره باسم ثم لا يبالي من أين هو يلتقط وإلى أين هو يسير. في التالي نذكر قصيدة له واحدة ما صنع بها وكيف صنع بها ؟

الوقعة هي أن الخلافة العثمانية قد انتهت سنة 1924م بيد مصطفى كمال أتاترك وأعلن بانهاؤها هو نفسه. فكانت هذه الوقعة قد صيرت الجروح في قلوب من كان له علاقة بالخلافة. وشوقي شاعرنا كان من هؤلاء الناس. قام شوقي يلوم المسلمين بما فعل بهم وبخلافتهم ويعيبهم على أعمالهم الخسيصة فيتعنى منشداً:

إلام الخلفُ بينكم؟ إلاما؟	وهذي الضجّة الكبرى علاما؟
وفيم يكيّد بعضكم لبعضي	وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز لا مصرُ استقرت	على حال، ولا السودان داما؟
وأين ذهبتم بالحق لما	ركبتم في قضيته الظلاما؟

ثم أتى على تشاحن بين العرب آنذاك ويقول:

تراميتم فقال الناس: قوم	إلى الخذلان أمرهم ترامي
-------------------------	-------------------------

ثم يفرّع على بيته السابق ويقول:

وكانت مصرُ أوّل من أصبتم	فلم تحصى الجراح ولا الكلاما
--------------------------	-----------------------------

بعد البيت هذا يقول إن مصر مثل السرطان التي لا تداوى وهي لأجل الخلافات الجارية بين أنفسهم، وعندما تختلف أمة أو قوم في ما بينهم فتكفيهم الخلاف نفسها إهلاكاً وتدميراً، كما هو القائل:

تباغيتم كأنكم خلايا	من السرطان لا تجد الضاماما؟
ملكنا مارن الدنيا بوقت	فلم نحسن على الدنيا القياما
طلعنا - وهي مقبلة - أسوداً	ورحنا - وهي مدبرة - نعاما

وفي القصيدة نفسها يشكو من ضعف ملوك العرب الذين تصيدوا للاستعمار ومكايدهم حتى اضمحلت سيطرتهم على الأقطاع حتى تولى بعضهم لتحمل أعبائهم وشعروا بالمسرة بمساعدتهم إياهم لكن مع الأسف ما نالوا شيئاً. وهو القائل في ذلك:

وُلِينَا الأمرَ حزباً بعد حزبٍ	فلم نك مصلحين ولا كراما
إذا التصريح كان براح كفرٍ	فلمْ جُنَّ الرجالُ به غراما ؟
وكيف يكون في أيدي حلالاً	وفي أخرى من الأيدي حراما ؟
وما أدري غداة سُقِيتُموه	أترياًقاً سقِيتم، أم سباماً ؟ ²⁶

هؤلاء المقاطع والأبيات تسير بنا إلى بيان الخلاف بين الشعب العربي ثم يتسلل بنا منه إلى المكافحات المقترحة في دفاع الأقاليم المستعمرين.

خلاصة المقال

نحن نفقو بعد دراسة السابقة أنّ شوقياً قد تناول كل ما التفت إليه نظره، وانفعل به انفعالاً شديداً ثم ضبطه في الذهن فجعل يُنشد فيه إما تنبيهاً بوقوع قومه في أسافل الخذلان وإما منعاً لهم عما اقترفوه من المساوي. وكذا حيثما وقع وقعة واطلع عليه شوقي أو اندلع نار الحرب أكان بين المسلمين أنفسهم أم بينهم وبين غيرهم فكان لشوقي في اقتصاصه براعة ينحلّ عقودها لمن يقرؤها ويتفكك عراها لمن يسمع إليها، إضافةً إلى ما خلّصناه في ما مضى، قد تصوّر شعره شاشة تجري عليها مسلسلات لتلك التشاجرات والشبكات الداخلية والخارجية.

الحواشي والهوامش

1 ثم الجدل لها أنواع مختلفة يعرفها أصحاب الفنون بحسب ما يفي بمقاصدهم؛ مثل قول الجرجاني: الجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. (وكذا) الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة. [انظر: التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص74]

2 المعلقات السبع وخاصة في قصيدة عمرو بن كلثوم عندما هو على وشك البيان لقصة وقعت بينه وبين عمرو بن هند. [أنظر: شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002م، ص227 وما بعدها.]

3 انظر: روايته عنتره من الابتداء إلى نهايتها.

4 شوقي، شاعر العصر الحديث، شوقي ضيف، دارالمعارف، مصر، ط3، 1957م ص275-285.

5 الموسوعة الشوقية، جمع وترتيب، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ج4، ص425 - 504، ملخصاً.

6 عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد (1306-1383هـ): إمام في الأدب، مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع. أصله من دمياط، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى، وكان أحدهم يعمل في عقادة الحرير. ففرع بالعقاد. من أعضاء الجامع العربية الثلاثة (دمشق والقاهرة وبغداد). شعره جيد. ولما برزت حركة التحلل من قواعد اللغة وأساليب الفصحى عمل على سحقتها. وكان أجش الصوت، في قامته طول، نعت من أجله بالعملاق. توفي بالقاهرة ودفن بأسوان. [الأعلام، الزركلي، ج3، ص266-267]

7 المصدر السابق، ج4، ص425 - 504، ملخصاً.

8 أنظر للتفصيل: المصدر نفسه، ج8، ص203 - 268.

9 مصطفى كامل باشا ابن علي محمد (1291 - 1326هـ): نابغة مصر في عصره، وأحد مؤسسي نهضتها الوطنية. مولده ووفاته في القاهرة. توفي شاباً. [الأعلام، ج7، ص238]

10 عمر بن مختار بن عمر المنفي (1275 - 1350هـ): أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حركهم مع المستعمرين الإيطاليين. نسبته إلى قبيلة "المنفة" من قبائل بادية بركة. ولد في البطان بركة وتعلم في الزاوية السنوسية بالجعبوب. قتل شنقا في مركز "سلوق" بينغازي. ومن رثاه الشاعران شوقي ومطران. [الأعلام، ج5، ص65، 66]

11 الشوقيات، ج3، ص597، 598.

12 المصدر نفسه، ج3، ص759، 760.

13 شوقي؛ شاعر العصر الحديث، ص23.

14 الشوقيات، ج1، ص49.

15 ديوان الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، مكتبة الأدب، محلة جنكي، بشاور، ط1، 1999م، ص90.

16 المصدر السابق، ج1، ص34.

17 المصدر نفسه، ج4، ص841.

18 "واترلو" موقعة دارت رحاها بين نابليون وولنجتون القائد الإنكليزي في 18 يونيو سنة 1815م، فانتصر الأخير بمساعدة بلوخر القائد الروسي، وكان من نتائج هزيمة نابليون في هذه الموقعة أسره ونفيه إلى جزيرة "سنت هيلانة" حيث قضى البقية من حياته. [الشوقيات، ج1، ص40]

19 المصدر نفسه، ج1، ص35.

20 ديوانه، دار الأدب العربي، رياض، المكة العربية السعودية، ط1، 1987م، ص72.

21 المصدر السابق، ج2، ص429، 430.

- 22 محمد بن أحمد بن إسماعيل باشا تيمور (1310 - 1339هـ): كاتب قصصي مصري. مولده ووفاته بالقاهرة. وهو ابن الأديب العالم أحمد تيمور باشا. سافر إلى برلين لتعلم الطب، ثم تركه وانتقل إلى باريس، وأقبل على قراءة كتب الأدب الفرنسي. وعاد بعد ثلاث سنوات إلى مصر. عاجلته الوفاة في الثلاثين من عمره. [الأعلام، ج6، ص22]
- 23 الشوقيات، ج3، ص608.
- 24 المصدر نفسه، ج4، ص819.
- 25 المصدر نفسه، ج4، ص823.
- 26 المصدر نفسه، ج1، ص303، 304.